المحاضرة 04: النقد عن المستشرق الإيطالي " نلينو "

1. درس نلينو اللغة العربية في جامعة تورينو مسقط رأسه، وعين أستاذا لها في المعهد الشرقي بنابولي، ثم في جامعة بالرمو بصقلية، ثم في جامعة روما. ولما رأت الجامعة المصرية وجوب إحياء علوم العرب بدأت منذ سنة 1909م تستدعيه لإلقاء بعض المحاضرات في الأدب العربي وفي الفلك والرياضيات عند العرب، وفي سنة 1932م انتخب عضوا في المجمع الملكي الإيطالي وفي المجمع اللغوي بمصر.

وتاريخ حياته – كما ترى- حافل بالنشاط في ميدان الدراسات العربية، وله مؤلفات وبحوث أخرى غير كتابه « تاريخ الآداب العربية» الذي سندرس اتجاهات النقد فيه، ومن تلك المؤلفات والبحوث كتاب «علم الفلك عند العرب»، وكتاب «حياة محمد» الذي نشر في روما بعناية ابنته المستشرقة مريم نلينو سنة 1946، بعد وفاة والدها التي حدثت في عام 1938م، وله أيضا بحوث في التصوف الإسلامي والفلسفة الشرقية إلى غير ذلك من إنتاج علمي.

2. وأما كتابه « تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية» الذي أشرنا إليه، فهو عبارة عن المحاضرات التي ألقاها باللغة العربية في الجامعة المصرية في العام الدراسي 1910-1911، ثم عنيت بنشر هذه المحاضرات انته مريم نلينو بعد وفاته، فطبعتها في مصر عام 1945م تحت هذا العنوان السابق مع تقديم للدكتور طه حسين اعترافا منه بفضل أستاذه عليه في توجيهه لمنهج الدراسات الأدبية أيام كان يتلقى عليه في الجامعة المصرية، لا سيما وهو يرى أن أستاذه هذا هو الموجه الأول للنهضة العلمية في دراسة الأدب العربي في مصر. ومما فعلته مريم نلينو أيضا هو نقلها هذا الكتاب إلى اللغة الإيطالية، ومن نصه الإيطالي نقله إلى اللغة الفرنسية المستشرق الفرنسي شارل بلا.

وأبرز ناحية في الكتاب هي الدقة في التحقيق والتمحيص، وتبدو مظاهر هذه الدقة في رجوع المؤلف لمراجع ومصادر عدة، ولطبعات مختلفة منها، ليوازن بينها دارسا ومحققا ومستنبطا من نصوصها وملائما بينها. وهذه الكثرة في الاعتماد على المراجع والمصادر هي قوام الكتاب، وهي التي تقفك أمام عالم ليست له غاية إلا كشف الحقيقة، ثم تبدو مظاهر هذه الدقة في حرصه على إيراد التاريخين الميلادي والهجري عندما يؤرخ للأعلام والمناسبات والحوادث، وهو حين يعرض لمسألة اختلفت فيها الآراء تلاحظه يحرص على الأمانة العلمية بعرضه جميع الآراء والروايات، ثم لا يقدم على ترجيح رواية على أخرى إلا حين تبدو له أدلة واضحة، أو يرى أنه يستطيع بالموازنة المنطقية أن يرجح ما يرجح. هذا ما يفعله في الآراء وفي التواريخ أيضا حيث يعرض لها بتحفظ فيذكر ما ورد فيها من روايات، ويشير أحيانا إلى أن ما يذكره تقريبي أو أنه لم يستطع الوقوف عليه.

ولقد اقتضته هذه الدقة والأمانة العلمية، وتعرضه لآراء من سبقه من العلماء بالتمحيص والغربلة، وعدم قبول هذه الآراء والتسليم بها كحقيقة مقدسة لا تقبل الجدل ولا تقبل الخضوع

لمناهج البحث العلمي، وعدم اعتماده كذلك على المصادر التي اعتمد عليها العلماء في كتبهم إلا بعد تحقيق وتثبت، أقول اقتضاه ذلك كله أن يقول في تواضع العلماء: « ستسمعوني يا سادة أسرد في أثناء دروسي عددا غير قليل من أسماء علماء معتبرين قدماء كانوا أم معاصرين شرقيين أم غربيين، فأنتقد أقوالهم وأبدى فكري فيها بالحرية التامة مستحسنا تارة لآرائهم واردا تارة عليها بعد تقديم الاستنادات والدلائل والحجج. وليس غرضي من ذلك الحط من شأن أولئك العلماء الأفاضل والحكماء الأماجد الذين سبقوني في هذه الأبحاث الخطيرة ومهدوا السبيل لمن جاء إثرهم وحذا حذوهم، كلا. وإنما غرضي الانتفاع بأعمالهم العلمية المهمة وتقدير فضائلها حق القدر واقتداء مثالهم في المسعى إلى الفحص عن حقائق الأمور قدر ما استطعت لأنه بسبب قلة الطبيعة البشرية بالنسبة إلى جلالة أسرار الكائنات وعظم المخلوقات ربما يعرض للباحث القليل الشأن أن تمكنه إضافة شيء ولو يسير إلى ما اكتشفه واخترعه السابقون له من الراسخين في العلم...

ومن ذلك يتضح جليا أن تقدم العلوم النظرية العقلية مرتبط بل متعلق بامتحان آراء السلف واختبار جميع ما يسعنا من تجاربهم ومعارفهم بدقة التمحيص والنظر فيجب علينا أن ننتقد أقوال السابقين لنا انتقادا صحيحا سالما خاليا عن كل غرض دنيء وميل شخصي. إن ذلك الانتقاد المقرون بالاجتهاد يفيدنا علما ويساعدنا على تحسين العمل وهو الذي يسوقنا إلى المقصود سياقة موثوقا بها».

ولحرص المؤلف على الناحية العلمية تجده كثيرا ما يستطرد لخبر تاريخي أو حادث مهم أو خبر شخصية من الشخصيات التي ترد في بحثه إلى غير ذلك من دواعي الاستطراد المفيدة التي تمت لموضوعه بسبب قوي. ومن حرصه على الدقة أيضا، عنايته بضبط الأعلام وأسماء القبائل والأماكن مما يعد أمرا ضروريا في تاريخ الأدب القديم لاسيما لقراء العصر الحديث الذين يحسون الغرابة في كثير من هذه الأسماء، وفي كثير من الألفاظ العربية القديمة. ومن مظاهر عنايته بتوضيح الفكرة ذلك البيان الذي رسمه ليبين فيه تتابع معاني لفظ الأدب من الجاهلية إلى منتصف القرن التاسع عشر. ولتوضيح الفكرة أيضا وتبيين أهدافه وغاياته يهتم دائما بوضع الخلاصات لأجزاء بحثه، كما يشير من حين لحين إلى بعض المواضع التي يربط بها أجزاء البحث. وقد لاحظته يعني بذكر بحور الشعر لكثير من القصائد والمقطعات والأبيات الشعرية التي يمر ذكرها، والكاتب من هذه الناحية يضيف إلى قيمته العلمية التي ذكرناها قيمة أخرى عروضية. ثم هو يحرص في كل فترة أدبية يدرسها على أن يقسم شعرها إلى أصناف، يدرس منها كل صنف على حدة، كتقسيمه الشعر الأموي إلى تسعة أقسام هي: الغزل في مدن الحجاز، الشعر الغرامي والتشبيب عند العرب، الشعر على الأسلوب القديم المألوف عند فحول شعراء الجاهلية، الأراجيز، الشعر المتعلق بالاغتراب والفتوح وهو شعر الجنود، الشعر المتعلق بالفتن والخلافيات الدينية والسياسية، الغزل والخمريات والمديح بدمشق، الشعر القصصي اليمني، المراثي. وكان يقسم الشعراء

بعضهم مع بعض. هذا، وتجده يعمد للتعليل في كل ما يدعو لذلك، فلا يلقي الكلام على عواهنه، كما أنه يضع المقدمات ويبني عليها النتائج.

ونحن بهذه الإلمامة إنما نعرض لمنهجه العام في البحث العلمي، وهذا المنهج بلا شك، يفيد في الدراسات الأدبية لتبنى على أسس صحيحة، وليصل بها الباحثون إلى نتائج قيمة، وليسير على ضوئها النقد الموضوعي المثمر، ولذلك تجد أثرها واضحا في تغيير حقائق التاريخ الأدبي في كثير من أنحائها وتفاصيلها.

وإن كان هناك ما نلاحظه على الكتاب فهو فقدانه لروح اللغة العربية في أسلوبه، والمؤلف في ذلك لم يستطع التخلص من أثر لغته الأصلية، وذلك مثل قوله: « فلم يشكوا في وجود المجنون» أو « ما شكوا..»، وكقوله: « ليس البصرتان في العراق أي البصرة والكوفة كما الفسطاط في مصر سوى مقامات كهذه متوسطة بين الحضر والبدو»، وأفضل من ذلك أن يقول: « ومثلهما الفسطاط في مصر»، وكقوله: «إن معاني مثل الواردة في أبيات الطرماح ليست نادرة في أشعار الخوارج»، وكان خيرا أن يقول: « إن مثل المعاني الواردة في الطرماح». كذلك نلاحظ ضعفه النحوي بلجوئه لما تجيزه اضعف الأقوال فيجمع بين ضمير الرفع والاسم الظاهر الذي يقع فاعلا كما في قوله: « الغزل الذي لم يتعاطوا غير شعراء مكة والمدينة والطائف في ذلك العصر» أي في القرن الأول، وكنا نريده أن يقول: « الغزل الذي لم يتعاطه غير شعراء مكة..». وحينا لا تسعفه الاصطلاحات الدينية فيقول: « إبراهيم صلعم» بدل « إبراهيم عليه السلام»، وحينا لا يسعفه معنى الكلمة فيخلط بينها وبين غيرها من مثل قوله: « وشيدوا لها المشارب والعليات وازدانوا المعاهد بالنقوش والتصاوير» يريد « وزينوا المعاهد أو أزانوها مثلا»، وكقوله: « فكفى ذلك دلالا على أهمية تلك الأناشيد» يريد « دلالة» أو نحوها من الكلمات الصحيحة.

وربما كانت مثل هذه الملاحظات جديرة بالتسجيل ونحن في معرض الحديث عن عمل أحد المستشرقين الممتازين في مجال الآداب العربية، بل من يعتبر الموجه الأول للنهضة الأدبية الحديثة في مصر، كما يقول عنه طه حسين. ومثل هذه الملاحظات لا تقلل من قيمة الكتاب في جملته، فليس من السهل أن يسلم المرء من الخطأ أو السهو، ولكنها مع ذلك، تعطيك صورة تستطيع أن ترى في ظلالها أكثر المستشرقين، إن لم نقل جميعهم.

3. وإننا بعد ذلك ذاكرون فيما يلي مجمل آراء نلينو النقدية كما بدت لنا من قرائتنا لهذا الكتاب:

(أ) إن مؤرخ الأدب عليه أن يوازن بين الأدب العربي والآداب القديمة الكبرى، كما يجب أن ينتفع بما بتوصل إليه العلماء في الحكمة والفلسفة والرياضيات والطب وغيرها، دون الخوض في مسائلها الخاصة أو استقصائها ودون انتقادها علميا، فهذا من شأن مؤرخي هذه العلوم لا من شأن مؤرخي الآداب، على أنه يجب أن يراعي في التاريخ عدم الاقتصار على ذكر الحوادث والوقائع بعضها ببعض، أو البحث عن نتائجها، وبذلك لا يقتصر المؤرخ –

كما يفعل الأقدمون- على ما طرأ على أمة من الطوارئ الظاهرة دون الاستفادة من الأسباب الباطنة الخفية كأهواء الناس وميولهم ومصالحهم، ولابد من التمحيص ونقد مصادر التاريخ، ومراعاة تأثير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الحوادث السياسية، ولابد من النظر في العوامل المختلفة التي تؤثر في رقي الحضارة وانحطاطها.

هذا من الوجهة التاريخية العامة، وأما من الوجهة الخاصة، فعلى مؤرخ الأدب بالإضافة إلى ذلك أن يبحث عن أصل كل جنس من الفنون الأدبية، وعن كيفية نموه أو انحطاطه، وعن تأثير الأدباء في تغيير الذوق والميول، وعليه دراسة طبائع الأمم وعاداتهم وغرائزهم، ودراسة جميع المؤثرات السياسية والنفسية والزمانية والمكانية.

(ب) وأما عن تطور اللغة والأدب فيقول نلينو إن اللغة كائن حي فعلي تقبل النمو والتجدد، فكثيرا ما يطرأ على ألفاظها التغير والانتقال من معنى لآخر بفعل ظروف الأمة الاجتماعية والسياسية والعلمية والفنية، وذلك مثل التطور الذي حصل لمعنى كلمة «أدب» في تاريخها اللغوي الطويل.

وأما انتقال الآداب من حال إلى حال فهو لا يحدث إلا بالتدريج البطيء، حيث يتغلب الأسلوب الجديد على الأسلوب القديم شيئا فشيئا، ولذلك فإن العصور الأدبية تتداخل ولا يمكن تحديدها بمواقيت معينة اللهم إلا تحديدا اصطلاحيا.

(ج) واهتمام الأديب بالتعبير عن حقيقة ما يكنه صدره من العواطف والخاطر ضروري في أدبه، فلا يتصرف عن ذلك بالتكلف والصنعة، فيعني بتنميق العبارة وزخرف الكلام وصنوف البديع.

وعليه أن يحذر تقليد الآداب الأوروبية بإفراط وبدون بصيرة، فإن ذلك يعود على آداب الشرق بالضرر فلا يعتني الناس بلغتهم، بل ربما دخلتها العجمة المستقبحة والتراكيب السقيمة والكلام الركيك والإنشاء السخيف ونحو ذلك مما يستنكف منه صاحب الذوق السليم، ومما تبدو آثاره واضحة فيمن أسرفوا في هذا التقليد.

وعلى الأديب أن يحذر أيضا تقليد الأقدمين في بكاء الأطلال، ووصف مشاق السفر في الفيافي إلى غير ذلك مما كان صفة لحياة أولئك الأقوام، فإن مثل هذا التقليد يجعل شعر المحدثين غير صادق، ويجعله بعيدا عن التعبير عن حقيقة ما في القلوب.

والحق أن الشعر مرآة أحوال الأحزاب السياسية الدينية، وترجمان أهواء الناس وميولهم وأخلاقهم وعاداتهم، والمعبر عن عواطفهم، وآرائهم في مسائل الدين والدنيا. وجودته تكون في صدقه وحسن لفظه وصقله وتدبيج أجزائه ورقة معناه، وتكون في عفته وعدم نحل الشاعر نفسه أبيات غيره، كما تكون في تصرفه في اللغة وحسن تصويره للطبيعة في إتقان وقوة تعبير وإيجاز يجعل القارئ يخال أنه يشاهدها. وهذه الأسس هي التي بنى عليها نلينو موازنته بين جرير والفرزدق والأخطل مع تحفظه في عدم التفضيل بينهم، إلا أنه ذكر ما تميز به الأخطل على صاحبيه، كما ذكر ما تميز به الفرزدق على صاحبه أيضا، واستطرد

لذكر معايبه، ولكنه لم يفعل مع جرير مثل ما فعل مع غيره، وبذلك تبدو لك هذه الموازنة ناقصة من بعض الجوانب.

(د) ووازن نلينو بين الشعر والنثر فقال: إن الشعر يسبق سائر الفنون الأدبية المستظرفة عند كل الأمم المتمدنة منها والهمجية، وذلك لأنه بانسجامه ووزنه يحرك النفوس ويؤثر فيها أكثر من النثر لا سيما إذا غني واستعملت له آلات الطرب. والشعر أجدر بالتعبير عن إحساس القلب وتصور النفس بلا تفكر وتعمد، وهذه القوة الخيالية غلبت عند كل أمة على القوة الفكرية والنظرية، كما أن الإنسان مال لاستحسان الشيء قبل ميله للتفكير فه، ولذلك كله فقد تأخر ظهور الإنشاء المنمق البعيد عن الكلام المرسل المعتاد، إلى أن بلغت الأمم درجة أعلى في المدنية والآداب، ثم أن العناية كانت منصرفة قديما للشعر أكثر من انصرافها للنثر وذلك لسهولة حفظ الشعر، ولإمكان تداوله وبقائه، وعدم إمكان كل ذلك في النثر لجهل الناس بالكتابة أو قلة استعمالها، الأمر الذي يجعل التغيير والتبديل يلحقان بالنثر بسرعة ثم لا يلبث أن يفقد العذوبة والرشاقة والأناقة، ويعود كلاما عاديا. ولهذين السببين كانت معظم براعة كلام العرب متجلية في الشعر.

4. وإذا كان ما ذكرناه الآن هو ما استنبطناه من الكتاب فإن خلاصة ذلك هي أنه يجب أن تكون اللغة قابلة للتطور والتجديد، وأن يكون أسلوبها بعيدا عن التكلف والصنعة، متميزا بحسن اللفظ وجودة المعنى وعفتهما، ومتانة السبك، والخلو من التقليد والنحل، مع حسن التصرف في اللغة، وأن يكون أسلوبها كذلك معبرا أصدق تعبير عن عاطفة الأديب وعن حياة الأمة بمناحيها المتباينة. هذا، ويجب أن يكون النثر معبرا عن الأفكار، الشعر معبرا عن الأحاسيس. وعلى مؤرخ الأدب أن ينتفع بالآداب الأخرى، وبثمرات العقول المختلفة، وأن يدرس العوامل المؤثرة في الأدب، ثم لابد من تميزه بالتحقيق والتمحيص والموازنة بين النصوص وحسن الاستنباط والتعليل ونقد المصادر والنزاهة العلمية.